اللغةُ العَربيةُ وما يجزي منها في تَفْسيرِ القرآنِ المجيدِ

د. مهـــدي البطاط

فحوى البحث

التفسير هو سبر غور النص بموجب قرائن لغوية قبل ان تكون دلالية وآفة التفسير الجهل والتعصب فمن اهم عناصر الموضوعية في التفسير وحياديته أن يكون المفسر متمكنا من لغة القرآن ويعمل فكرهُ بما يطوع الالفاظ الى دلالات قريبة على اللفظ والمسامع وهذا ما حاول البحث ايصاله.

المقدمـــــــــة:

إن علم التفسير كما أنه أشرف العلوم فهو اكثرها خطرا بالنسبة الى المفسر لأنه يتصدى لبيان مراد الله تعالى من كلامه وكأنــه ينوب عن رسول اللهﷺ الذي ألقيت على عاتقه مهمة التبيين للقرآن. لذلك فكانت ثمة شروط عديدة ينبغي للمفسر أن يتجاوزها لكي يمكنه أبداء الرأي في تفسير القرآن ومن هذه الشروط هي عِلمه باللغة العربية والتي هي لغة القرآن وقد تطرق بحثنا هذا الى تفصيل هذا الشرط والذي عادة ما تطرق اليه المفسرون ولكن بايجاز، و ذكرنا أصل اللغة العربية ومنشأها وكيفية وصولها الى مرحلة الكمال في عهد نزول القرآن و أرجحية لغة قريش على غيرها وبيان خصائص هذه اللغة ومن ثم أثبتنا أن ما ورد في القرآن هو مطابقاً للغة العرب وغير خارج عنها تماما وما خالف بعض القواعد النحوية فهو من غلط النحو لتأخره عن زمن نزول القرآن وكون القرآن هو الحجة في القاعدة النحوية لكونه نص من العصر الذي كان المرجع في وضع قواعد النحو، هذا فضلا عن أنه كتاب سماوي معصوم. ومن ثم تطرقنا الى مقدار ما يحتاجه المفسر من اللغة العربية وتوصلنا الى أنه أضافة على تمكنه من القواعد النحوية والصرفية والبلاغة والمفردات واللغة كذلك لابد له من أن يكون متقناً للغة العربية كلغة لا أن يكون مقتصراً على معرفة مصطلحات القرآن أو على العربية العامية اليوم؛ بل من أجل أن يأتي بجديد في التفسير ويظهر إبداعه في بيان المعاني، عليه أن يعرف العربية كالعرب الفصحاء.

حاجة المسلمين الى اللغة العربية:

العربية هي اللغة التي أراد الله تعالى لها أن تكون لغة المسلمين التي توحدهم حيث خاطبهم بها وقد قال الامام الصادقؑ: "تعلموا العربية فإنها كلام الله الذي يُكلم به خلقه"[1]. و من واجبنا كمسلمين أن نتعلم اللغة العربية حتى نعرف كلام ربنا وما أراد منا ويتضاعف هذا الواجب لمن يتصدى لتفسير القرآن حيث أنه يفترض أن يكون عارفا بالعربية وعارفا بظرائفها وجميع جوانبها حتى بإمكانه استنباط الكنوز المودعة في هذا

الكتاب السماوي الذي جعل الله فيه من القابلية على سعادة الدارين ما ليس في غيره من الكتب. ونحن اليوم قد هجرنا لغة القرآن وأصبحنا لا نفهم ما يخاطبنا ربنا بالضبط فالمسلم اليوم عندما يستمع الى تلاوة القرآن لا يفهم ما يسمع وحتى العربي لا يدرك تمام المعنى سوى المفردات المتداولة هذا اذا لم يطرأ عليها تغيير الزمن إن في اوساطنا العلمية المتخصصة بالدراسات الاسلامية كثيرا ما يجهلون اللغة العربية الفصحى ولا يستطيعون النطق بها، والكثير يعتبرها لغة تخص قومية خاصة وهم العرب والاسلام أعمُ منها كما يقول الرسول ﷺ، بل هي لغة المسلمين جميعاً فلابد عليهم تعلمها والنطق بها ولابد من أن يكون ذلك، وإن كان في السابق قد تحقق ذلك بشكل جيد، حيث هي اللغة الاولى والرسمية في جميع البلدان الاسلامية ولكن اليوم ومع الاسف ابتعد المسلمون عنها وحتى العرب لم يعيروا لحفظها الاهتمام المطلوب في حين أن القرآن لا يدخل الى حياة المسلمين الا من خلالها. وإن الدعوةَ الى تعلُّمِها والاهتمام بها إنما هي دعوة للقرآن وللإسلام فهي لا قيمة لها لو لم تكن لغة القرآن والسنة. و من الدلائل على أنها ليست لغة مختصة بقوم دون قوم أن هنالك عناية اللاهية في إيصالها الى هذا الكمال والسعة والدقة حيث صارت وعاءً للقرآن وطريق يتجلى من خلاله الله سبحانه وتعالى لخلقه. ولا لغة أفضل وأدق وأجمل وأعذب منها، وإن من المؤسف كذلك أن يتصدى لتفسير القرآن قديما وحديثا من لم يتقن العربية وبالتالي أوقعوا الامة في متاهات وتأسست مذاهب منحرفة من خلال هذا الفهم المعوج، فقضية التجسيم لله ما هي إلا جهل ببعض جوانب اللغة العربية وهو الاستعارة والتشبيه، وليس الجبر والتفويض والمذاهب العرفانية والباطنية المنحرفة الا من الجهل بهذه اللغة ايضا وعدم التفريق بين الحقيقي والمجازي وأمثاله. ونحن هنا نريد أن نبين أهميتها لاسيما للمفسر وقد أتفق العلماء على كون الاطلاع على بعض علومها شرط للمفسر ولكن نحن نقول

إن الاطلاع على جميع جوانبها، لاسيما التمكن من التحدث بها هو شرط كمالي للوصول الى تفسير دقيق ومبدع غير تقليدي. ومن باب حصول المعرفة العامة رأينا من المناسب أن نتطرق في البداية الى أصل اللغة و كيفية تكونها وتطورها[٢].

أصل اللغة العربية

وفضل لغة قريش على غيرها:

أصل العربية و فروعها وما هو حجة في القراءة القرآنية وأي اللغات يعتمدها المفسر في تفسيره. وقبل ذلك لابأس بإعطاء نبذة مختصرة عن أصل العربية ومنبع انحدارها من الشعوب السابقة الى عصر النزول الذي تكاملت عنده لغة القرآن.

قد ذكر العلماء أن العرب الذين نزل القران بلغتهم ينسبون الى الجنس السامي. والجنس السامي يتكون من مجموعة من الشعوب في الشرق الاوسط؛ دلت القرابة اللغوية على أنها كانت في الاصل تتكلم بلهجات متقاربة، تطورت الى لغات سميت جميعا بسم السامية وهي تتشابه في اصول أفعالها، وأزمانها، وفي كثير من أصول الكلمات والضمائر والاعداد[٣].

واتفق الباحثون على أن الموطن الاصلي لهذه الشعوب في العصور التاريخية هو الجزيرة العربية، ومن ثم خرجوا وانتشروا في البلاد لضيق الجزيرة عنهم بسبب جدبها، وخصب ما حولها من العراق والشام واليمن و كانوا هم البابليين والآشوريين والكنعانيين والآراميين والعرب الجنوبيين.

وأصل لغة العرب هي لغة أسماعيل عليه السلام وهو أخذها من قبيلة جرهم الذين نشأ بينهم ولما كانت جرهم قبيلة من قبائل الجنوب اليمنية، دل ذلك على أن أصل لغة العرب هي لغة الجنوب[٤].

وقد عاشت فروع قبائل معد، وفروع قبائل القحطانيين في الجزيرة العربية، ثم نمت تلك الفروع وتطورت وانتشرت وتفرقت في مناطق شتى من الجزيرة، ثم أثرت البيئات المختلفة في لغاتها فحدثت فيها لهجات تختلف فيما بينها في كيفية النطق بكثير أو قليل من الكلمات[٥].

وذلك من قبيل: إلحاق الشين أو السين بكاف المخاطبة في الوقف فيقولون: رأيتكـــــــــش أي رأيتك، وعليتكش، أي عليك. وهي لهجة تميم وأسد وبعض قبائل ربيعة.

وحذف النون من الجارة فيقولون: (ملبيت) أي من البيت وهي لغة خثعم و زبيد.

وابدال اللام ميماً في ألف المعرفة وبها جاء ما روي في الخبر: "ليس من امبر امصيام في امسفر" أي ليس من البر الصيام في السفر.

ابدال الحاء عيناً كقولهم العسن والعسين أي الحسن والحسين وهي لغة هذيل.

ثم من تدبير الله عزوجل أن اتجهت لغات العرب الى التقارب والاتحاد وذلك قبل مبعث النبي ﷺ لعوامل متعددة[٦].

ثم إن لغة قريش صارت هي الغالبـــة، فصارت هي الفصحى التي أنتشرت بين العرب واتخذوهـــا لغة شعرهم وخطبهم، وذلك لكون لغتهم أفصح اللغـــات وأصفاها وأسلسها، وقد علل بعضهم تفوق لغة قريش بأنهم كانوا: "قطان حرمه وجيران بيته الحرام و ولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم؛ يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في أمورهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب[٧].

لذلك قال العلماء عند الاختلاف في القراءات، ينبغي الرجوع الى لغة قريش. وقد فسر أهل البيت بعضا من الآيات أستنادا إليها[٨] و ورد أن لغة قريش لم تختلف مع الانصار في شيء من القرآن الا في لفظة التابوت، فلغة قريش بالتاء والانصار بالهاء[٩].

والتفسير تابع لذلك أيضا فلا ينبغي التفسير بلغات ضعيفة أو مخالفة للأصل. ويحدث هذا كثيرا في بعض القراءات مما يسبب بعضها تغييرا في المعنى أو غرابة في

تفسير القرآن كما في قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾[سورة طه: ٦٣] حيث قرء بعضهم بالثقيلة المشددة وصار هذا سببا لطعن بعض المعاندين في كون هذا يخالف القواعد المتفق عليها للغة العربية فإن المشددة تنصب أسمها وترفع خبرها ولم يكن هذا هنا!. ولم يسع العلماء في الاجابة على ذلك الا الرجوع الى اللغة الافصح ليقرأ القرآن على غرارها. يقول الشيخ معرفة: "فالقراءة الصحيحة المتّبعة و هي قراءة حفص و جمهور المسلمين هي القراءة بالتخفيف، مخفّفا عن المثقّلة، بدليل وجود اللام في الخبر... أمّا الحمل على لغة بالحرث بن كعب، حيث كانوا يلهجون في المثنّى بالألف مطلقا -كما فعله ابن قتيبة فغير سديد. لأنّ القرآن نزل على وفق اللغة الفصحى و لا يُحمل على الشواذ"[١٠]. وأمثال هذا ليس بقليل فلابد عند الاختلاف من الرجوع الى لغة قريش لهجتهم والتي عليها جمهور المسلمين.

الخصائص العامة للغة العربية:

للغة العربية ميزات امتازت بها على غيرها من اللغات وتفوقت بها على نظائرها، منها:

أ. الخصائص الصوتية: وذلك بتوزع حروفها في أوسع مدرج صوتي، حيث تتوزع مخارج حروفها ما بين الشفتين الى أقصى الحلق.

ب. مراعاة الانسجام الصوتي والتأليف الموسيقي عند الجمع بين الحروف فلم تجتمع حروف منفرة معا الا نادراً كحرف الزاي والظاء و الجيم مع القاف والهاء مع العين والجيم مع العين وغيرها[١١].

ت. الخصائص الاشتقاقية والصرفية: وهما خاصيتان مهمتان أعطت اللغة العربية ميزتين كبيرتين وهما الثبات مع المرونة والخصوبة، فمادتها واحدة وتشتق منها مجموعة كبيرة من المعاني مثلا: ذ ه ب وتشتق منها ذهب يذهب يذهبون تذهب تذهبان يذهبن والى أخره.

وكذلك تتكون الكلمات من صيغ و اوزان معروفة محددة.

ث. الاعراب: فهو من مميزاتها عن كثير

من اللغات، و كل ذلك لإيصال المعنى المراد بأبسط وسيلة وتفريقه عن غيره من المعاني.

ج. سعة المفردات: فلا تكاد لغة تحوي هذا القدر من المفردات في قاموسها كما للعربية وفي كل ذلك تخضع المفردات للقانون والنظم..

وغيرها من الخصائص الكثيرة التي يطول المقام عند ذكرها.

هل خالف القرآن لغة العرب؟.

كما هو واضح وأشرنا الى ذلك فإن القرآن عربي ونزل بلغة أهل الجزيرة وهم العرب ولم يختلف عن كونه عربي أحد ولكن يوجد رأيان في الاختلاف الجزئي بين القرآن وبين اللغة العربية:

الاول: إن القرآن عربي اللسان لا الصفات:

قال الدكتور عبد الستار سعيد: "إن العربية لغة بشرية تخضع لما فيهم من فضائل و رذائل؛ لذلك دخلها ضرورة الشعر، و جفاء البادية و غلظتها، و رقة الحواضر و عذوبتها، وفيها الهجاء المقذع، وفيها التصوير الفني الكذوب"[١٢].

وأيده استاذنا فاكر الميبدي بقوله: "ما القرآن، فهو كلام الله و وحي منه، لا سبيل للشياطين اليه... أخذ من العربية أجل وأسمى ما في لسانها وأساليبها، وتجرد عن كل مثالبها ونقائصها في أدواتها وأغراضها... إن شئت قلت: إن القرآن عربي اللسان لا الصفات. وفي ضوء هذه الخصيصة يفترق عن العربية في مجازاته، وتشبيهاته، وكناياته، وأقسامه، وغيرها من وجوه الادب والآداب.[١٣] وقال ايضا: "لا يكون القرآن تابعا لكل ما جائت به لغة العرب لفظا ومعنى: من جفاء البادية، والهجـــاء المقذع، ورقة الحواضر، وكذا الضروريات الشعرية، وغيرها"[١٤].

إن الجفاء والهجاء وغيره ليس له دخل في قواعد اللغه وقوانينها إنما هو استعمال!. فالقرآن لم يستعمل أسلوب العرب الجاهليين ولكن أستعمل أسلوب لغتهم فالهجاء والفحشاء مثلا هو من اللغة ولكن من لم يستعمله لا يكون خارجا عن أطار اللغة؛ بل خارجا عن ثقافة الناطقين بها، فمن يتكلم الفارسية

ولكن لا يذكر الشعر الفارسي فلا يقال عنه أنه خالف اللغة الفارسية بل خالف الفرس الذين يستعملون الشعر في لغتهم مثلا والفرق بين الكلامين دقيق محصله أنه لا يمكن أن يقال أن القرآن خالف العربية لأجل عدم استخدامه لبعض الاساليب في الكلام.

وقال في هذا الصدد مؤيدا لما يَقول المفسران الكبيران الطوسي والطبرسي: "و الألفاظ (القرآنية) على مذاهب العرب في الكلام[١٥]. وعلى مجاري كلام العرب في محاوراتهم"[١٦].

الثاني: إن القرآن ليس على لغة العرب تماماً فهو مغاير لها في بعض القواعد و الالفاظ:

ولهذا ثلاثة آراء:

أولهم: بعض المشركين زمن النزول:

حيث نقل أنهم قد أشكلوا على رسول الله بوجود بعض الالفاظ المغايرة للغة العربية حيث ورد أن نفر من المشركين -في عهد الرسول -أرادوا ان يطعنوا بالقرآن عن طريق استخراج ما به من آيات غير فصيحة أو كلمات غير متداولة ليعلنوا عن بطلان اعجاز القرآن-و قد قاموا باستخراج الكلمات الثلاثة و هي (يستهزئ، كبار، عجاب) و جاءوا إلى الرسول ليشعروه بما عثروا عليه، و ان هذا سيذهب باعجاز القرآن و روعته، فأجابهم الرسول باحضار فصحائهم و بلغائهم للتباحث معهم في أمر هذه الكلمات، و بالفعل فقد قدم هؤلاء على الرسول ﷺ و عند دخولهم قام لهم الرسول فقاموا ثم جلس فجلسوا معه ثم قام الرسول مرة أخرى فقاموا معه و جلس فجلسوا و هكذا إلى عدة مرات فما كان من كبيرهم إلا ان يخاطب الرسول بقوله: "أ تستهزئ بي و انا شيخ كبار ان هذا يا محمد لشيء عجاب" فأجاب الرسول بأن هذا الكلام هو جواب هؤلاء فانصرفوا.."[١٧].

ثانيهم: بعض المستشرقين:

قام قديما وحديثا بعض المستشرقين بجمع التناقضات -بزعمهم الموجودة في القرآن- ومن بينها مخالفته لقواعد ومفردات اللغة العربية وألفوا في ذلك كتبا ومقالات و في الماضي نشرت هذه

الكتب في مطبعة بليانـدر فى بال بسـويسرا سنة (١٥٤٣).

و قام عدد من الآباء الدومينيكانيين و الجزويت بنشر كتب هاجموا فيها القرآن و الإسلام و منهم:

- دينيس فى كتابه «حول الخداع المحمدى» كولون (١٥٣٣م).
- ألفونس سينا فى كتابه «التحصين الإيمانى» (ت ١٤٩١م).
- چان دى تيريكرياتا فى كتابه «بحث للرد على الأخطاء الرئيسية الخادعة لمحمد» روما (١٦٠٦).
- لويس فييف فى كتابه «الإيمان المسيحى الحقيقى ضد المحمديين» بال (١٥٤٣).
- ميشيل نان فى كتابه «الكنيسة الرومانية اليونانية فى الشكل و المضمون للدين المسيحى ضد القرآن و القرآنيين دفاعا و برهانا» باريس (١٦٨٠).

و لكن أشد الكتب هجوما على القرآن و الإسلام ما كتبه «لوودقيجو مراش» (١٦١٢ -١٧٠٠) فى كتاب «عالم النص القرآنى» نشر فى بادوا سنة (١٦٩٨)، و هو كتاب فى مجلدين من الحجم الكبير عنوان المجلد الأول «مقدمة فى دحض القرآن»، و قد نشر هذا الكتاب متفرقا فى أربعة أجزاء سنة (١٩٦١ م)، و فيه تناول مراش حياة الرسول ﷺ حسب المصادر العربية، و تناول المجلد الثانى النص العربى للقرآن مع ترجمة لاتينية و شرح النواحى الغامضة فى النص ثم نقده[١٨]. وممن اتعب نفسه من المتأخرين فى مجال أخراج مخالفات القرآن مع اللغة العربية وبزعمه وجود اللحن في القرآن هو هاشم العربي حيث ذكر عدة كلمات في القرآن لم تكن عربية أو مخالفة للقواعد العربية في كتابه ملحق ترجمة كتاب الاسلام[١٩]. وقد رد عليه الشيخ معرفة مفصلا في كتابه شبهات و ردود حول القرآن ومن قبله الشيخ محمد جواد البلاغي حيث أجاد في الرد على هؤلاء، لاسيما في كتابه الرحلة المدرسية. وكانت اشكالاتهم نابعة من عدم تضلعهم في اللغة العربية فهذا هاشم العربي والذي

يصفه الشيخ معرفة بأنه أعجمي متعرب يذكر نماذج مسلّمة في اللغة العربية لكنه هو لم يلتفت اليها أو مفردات هي ليست عربية واستخدمت في القرآن وهذا كان سائرا عند العرب في تعريب الكلمات الاجنبية وخير ما رد به الشيخ البلاغي أنه خاطب هؤلاء المستشكلين على عربية القرآن ومخالفته لقواعد النحو والصرف استنادا على أقوال النحاة بأن القرآن أقدم سند عربي واذا كان رسول الله والعياذ بالله قد جاء بالقرآن من نفسه فيبقى أنه عربي أصيل قد عاش في الصدر الاول والنحاة المتآخرون هم عيال عليه يقتاتون من سفرته، فالعربية أخذت من أولئك الأوائل فكل ما قالوه هو الحجة وليس ما قاله هؤلاء[٢٠].

مخالفات القرآن للغة العربية كما زعمها المخالفون:

و كمثال من جملة ما ذكر هاشم العربي هذا، هو حول قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾ [سورة الكهف: ٧٩] قال: كان الصواب أن يقول: و كان قدّامهم...[٢١] فرد عليه الشيخ معرفة بقوله: "ما أقبح بالرجل لا علم له بالعربية و هو يتجرّأ في تخطئة أقدم و أقوم كلام عربي رصين. القرآن أصحّ سند عتيد حفظ للعرب لغتهم الأصيلة، و لا تزال العرب تعرف أصالتها من القرآن و تستلهم أساليب كلامها من تعابير القرآن، هذا ما يبدو من العرب خضوعهم تجاه عظمة القرآن، سواء كانوا ممّن آمنوا به و صدّقوه وحياً -و هم الأكثرية الساحقة- أم الذين بقوا على جاهليّتهم الاولى و هم النزر اليسير. لكنّهم جميعا بخعوا أمام كبرياء هذا الكتاب و جبروت هذا الكلام. إنّ كلمة «وراء» في هكذا موارد من استعمالاتها يراد بها: الكارثة الخطيرة التي تتعقّبهم في مسيرة الحياة، و المعنى أنّهم سائرون لاهين، و تلاحقهم داهية دهماء تسعى وراءهم للنيل منهم و هم غافلون عنها غير مبالين بها. و هو من ألطف الكنايات. و هذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾، ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾،

﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾.

و هكذا جاء استعماله في الشعر الجاهلي، قال لبيد:

أ ليس ورائي إن تراخت منيّتي

لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

و قال المرقش:

ليس على طول الحياة ندم

من وراء المرء ما لا يعلم

قوله: أ ليس ورائي، أي أ ليس يتعقّبني لزوم العصا؟. و هو تعبير كنائي عن الانتظار لهم في منتهى خطّ المسير. فكان قول المفسّرين: أمامهم، هو لازم المعنى و لم يريدوا ترجمة اللفظة[٢٢].

و قال أيضا: «ممّا اخذ على القرآن: عدم نسجه على منوال واحد، فهناك ظاهرة الالتفات و تنوّع الخطاب و الانتقال و الرجوع و القطع و الوصل... و إلى أمثال ذلك من التنقّل الكلامي. زعموا أنّه قد يشوّش على القارئ فهم المعاني!. لكنّه جهل بأساليب البديع من كلام العرب، و ما ذاك الالتفات و هذا التنقّل في الخطاب إلّا تطرية في الكلام تزيد من نشاط السامعين و تسترعي انتباههم لفهم مناحي الكلام أكثر و أنشط. و الشيء الذي أغفلوه أنّهم حسبوا من صياغة القرآن أنّها صياغة كتاب، في حين أنّها صياغة خطاب. إنّ لصياغة الكتاب مميّزات تختلف عن مميّزات صياغة الخطاب. فقضيّة الجري على منوال واحد هي خاصّة بصياغة الكتاب. أمّا التنوّع و التنقّل و الالتفات فهي من خاصّة صياغة الخطاب، سواء أكان نظما أم نثرا، فلا يتقيّد الناطق بالاطّراد في سياق واحد، بل له الانتقال و التحوّل أثناء الكلام حسبما ساقته دلائل المقام»[٢٣].

وكذلك حول قوله تعالى: ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ كيف جاء بالصفة مذكرة والموصوف مؤنث[٢٤].

وجوابه أن الرّيح مؤنّثة. و توصف بعاصف و عاصفة على سواء. لأنّ العاصف صفة الريح لا غيرها كالحائض والحامل للمرأة، فلا تشتبه بغيرها من غير حاجة إلى التاء الفارقة.

قال ابن منظور: و هي ريح عاصف و عاصفة.

و استعملها القرآن على الوجهين: "جاءَتْهـــا رِيحٌ عاصِفٌ". "وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً".

وكذلك يجوز عند النحويين التفريق بين التأنيث والتذكير أذا كان الاسم ظاهرا وهو مؤنث مجـــازي[٢٥]. لكن مَن أشكل على القرآن لم يتقن أوضح القواعد النحوية.

وأشكل كذلك على رفع الاسم الذي يستحق النصب كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾، فلكونه عطفا على محلّ الاسم و هو رفع بالابتدائية.

والنتيجة أن القرآن هو مطابق للغة العربية تماماً ولم يختلف عما ينطق به العرب وما أدعي أنه مخالف لقواعد اللغة فهو جهل من قبل المدعي بفنون اللغة وظرائفها وكذلك توجد بعض المخالفات من قبيل جمع الفعل والأسم ظاهر وهو مما فات النحاة لا مما خالف العرب زمن النزول والدليل على ذلك:

- إنه نص من عصر العربية الصافية الذي منه ومن بعده أخذت قواعد اللغة العربية ودونت.
- علم النحو متأخر زمناً عن القرآن.
- لو كان فيه ما يخالف العربيـــة لأعترض عليـــه العرب الاقحاح أنذك، بالأخص المعاندين منهم والذين يترصدون أي ثغرة ليبطلوا بها الدعوة السماوية.

ثالثهم: وممن أدعى مخالفة القرآن للغة العرب هو بعض المتعصبين في عصرنا الحاضر حيث يقولون لا يمكن أن نقبل أن القرآن جاء على أساس قواعد العرب الجاهليين وقوانينهم في اللغة ولم ينحرف عنها، والقرآن وهو كتاب الله كيف يمكن أن يتقيد بما وضعه الجهلاء من العرب كقانون للغة؛ بل أن القرآن هو نفسه من وضَع القواعد والاساليب ولا يخضع لما يقول العرب الا بالنزر اليسير لكي يفهموه[٢٦].

و أصحاب هذا الرأي لم يفرقوا بين استعمال اللغة كأداة وبين خضوع القرآن لثقافة عصر الجاهلية ولا علاقة بين الاثنين فهو ومن دون شك مترفع ولا يخضع لأي صغير وكبير من الثقافات

الباطلة عند عرب الجاهلية وغيرهم. وأما اللغة فهو ما صرح به القرآن من كونه على لسانهم وكما هو معروف من كون اللغة العربية على قدر كبير من السعة والدقة فهي أفضل اللغات من حيث أيصال الكلام اللهي الى البشر. و نحتمل أن هنالك يدا الهية في نمو اللغة ونضوجها الى ذلك المستوى الراقي حتى تمهد الارضية لأعجاز القرآن ومن شواهده أن العربي ما كان يلحن في الكلام وكأنه سجية وملكة من دون قواعد مسجلة عندهم، وأستمر ذلك حتى نزل القرآن وبان تفوقه المعجز عليهم. وبعد عقود قليلة من الزمن شوهد اللحن عند العرب.

رأي المفسرين حول عربية القرآن:

قال القرطبى فى باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب، أولا: «لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، و أن فيه أسماء أعلامٍ لمن لسانه غير لسان العرب؛ كإسرائيل و جبريل و عمران و نوح و لوط.

و اختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؛ فذهب القاضى أبو بكر بن الطيب و الطبرىّ و غيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه، و أن القرآن عربىّ صريح، و ما وجد فيه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات، إنما اتفق فيها أن توارد اللغات عليها فتكلمت بها العرب و الفرس و الحبشة و غيرهم، و ذهب بعضهم إلى وجودها فيه، و أن تلك الألفاظ لقلّتها لا تخرج القرآن عن كونه عربيّا مبينا، و لا تبعد رسول اللهّ عن كونه متكلما بلسان قومه. فالمشكاة: الكوّة. و نشأ: قام من الليل؛ و منه إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ، و يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ أى ضعفين. و فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أى الأسد؛ كله بلسان الحبشة.

و الغسّاق: البارد المنتن بلسان الترك. و القسطاس: الميزان؛ بلغة الروم. و السّجيل: الحجارة و الطين بلسان الفرس. و الطّور الجبل. و اليمّ: البحر بالسريانية. و التّنّور: وجه الأرض بالعجمية.

قال ابن عطية: «فحقيقة العبارة عن

هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب و عرّبتها فهى عربية بهذا الوجه. و قد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، و كسفر مسافريهم؛ و... فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها، و جرت إلى تخفيف ثقل العجمة، و استعملتها فى أشعارها و محاوراتها، حتى جرت مجرى العربىّ الصحيح، و وقع بها البيان؛ و على هذا الحدّ نزل بها القرآن. فإن جهلها عربىّ ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى «فاطر» إلى غير ذلك. قال ابن عطية: «و ما ذهب إليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا في لفظِهِ فذلك بعيد، بل إحداهما أصل و الأخرى فرع في الأكثر؛ لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا»[٢٧].

قال غيره: و الأوّل أصح. و قوله: هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم، ليس بأولى من العكس، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أولا، فإن كان الأوّل فهى من كلامهم، إذ لا معنى للغتهم و كلامهم إلّا ما كان كذلك عندهم، و لا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم، و قد قال ذلك الامام الكبير أبو عبيدة.

فإن قيل: ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه. قلنا: و من سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب و ردّ هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية، و أما إن لم تكن العرب تخاطبت بها و لا عرفتها استحال أن يخاطبهم اللهّ بما لا يعرفون، و حينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا، و لا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم»[٢٨].

قال القرطبي: أجمَعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، و أجمَعوا أن فيه أعلاما من الأعجمية كإبراهيم و نوح و لوط، و اختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني و الطبري و قالا: ((ما

وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات))[٢٩].

و كان الشافعي أول من ردَّ على الزعيم كلامه الفصيح وحجته القوية، مبيّنا أنه ليس في كتاب اللهّ شيء إلا بلسان العرب، مفندا حجج هؤلاء الزاعمين و أهمّها اثنتان:

الأولى: أن في القرآن خاصا يجهل بعضه بعض العرب.

و الاخرى: أن في القرآن ما ينطق به غير العرب.

وقد رُدَّ على الحجة الأولى: بأن جهل بعض العرب ببعض القرآن ليس دليلا على عجمة بعض القرآن، بل هو دليل على جهل هؤلاء ببعض لغتهم، فليس لأحد أن يدعي الإحاطة بكل ألفاظ اللسان العربي: لأنه أكثرها لفظا، و لا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي.

ثم رُدَّ على الحجة الاخرى: بأن بعض الأعاجم قد تعلم بعض الألفاظ العربية، و سرت إلى لغاتهم، و يحتمل أن يوافق لسان العجم أو بعض الألسنة قليلا من لسان العرب، و قد يكون بعض الألفاظ العربية من أصل أعجمي، لكن هذا القليل النادر من أصل غير عربي قد سرى قديما إلى العرب، فعرّبوه، و أنزلوه على طبيعة لغتهم، و جعلوه صادرا عن لسانهم، بحسب حروفهم و مخارج تلك الحروف و صفاتها في لغة العرب، و ذلك مثل الألفاظ المرتجلة و الأوزان المبتدأة لها، و إن كانت في الأصل تقليدا في نغمتها للغات الأخرى[٣٠].

و تضافرت الآيات القرآنية بالتصريح بأن القرآن كله عربي، جملة و تفصيلا، و أنه نزل بلسان العرب قوم النبي ﷺ، منها قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[سورة يوسف: ١ -٢] و منها قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥] و منها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾ [سورة الرعد: ٣٧] و منها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[سورة الشورى: ٧] و منها:

حم. ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ١ -٣].

و منها: ﴿ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمز: ٢٨].

أثر علوم اللغة العربية في التفسير:

قد ذكر كل من فسر القرآن أو من كتب في شروط المفسر أن معرفة اللغة العربية لها أثر في التفسير؛ بل قد ذكروا شرط العربية في مقدمة الشروط للمفسر فهذا السيد الحكيم يقول: "لابد أن يكون المفسر عالما بالعربية بالحد المناسب لعملية التفسير... وإن كل ما يرتبط بنظام اللغة العربية يكون له و أثر في فهم القرآن وتفسيره"[٣١].

القرآن نزل بلسان العرب يهدي إلى أنه لا يمكن أن يفهم إلا من جهة لسان العرب؛ لأن معنى عربيته "أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة، و أساليب معانيها، و إنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، و بالعام يراد به العام في وجه و الخاص في وجه، و بالعام يراد به الخاص، و الظاهر يراد به غير الظاهر.. و كل هذا معروف عندها، لا ترتاب في شيء منه، هي، و لا من تعلّق بعلم كلامها.

فالقرآن في معانيه، و أساليبه على هذا الترتيب. فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب.. كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم؛ لاختلاف الأوضاع و الأساليب.

و الذي نبّه على هذا المأخذ في المسألة هو الشافعي الإمام في رسالته الموضوعة في أصول الفقه"[٣٢].

مقـــدار ما ينبغي الاطلاع عليه من العربية:

مقدار ما ينبغي الاطلاع عليه للتفسير فيما يخص اللغة العربية عدة علوم وهي:

النحو:

والشيخ العك بعد تطرقه لمعنى النحو والاعراب في اللغة والاصطلاح يقول: «ندرك أنهما علم يُتوصل بهما الى ضبط الألفاظ العربية، وتؤدى بهما المعاني على الوجه الصحيح، كما يُدرك

بهما معاني النصوص ومقاصد تركيبها ومؤدى ألفاظها. ولذلك كان علم النحو والاعراب، من علوم التفسير، لأنه به يتضح معنى القرآن وتدرك مقاصده، ثم بهذا العلم تستقيم قراءة القارئ للقرآن، فلا يقع منه لحن فيه، كما به يكون الكشف عن المعاني بالألفاظ. ولذلك أتجهت مناهج العلماء المفسرين في تفسير القرآن الكريم، الى أن يكون مع تفسير المعنى: إيضاح المبنى، وذلك يعتمد على علم النحو والإعراب»[٣٣].

وقال ايضا: «إن علم النحو وُضع أول ما وضع لصيانة لغة القرآن من كل تحريف، ولحفظها من أي تغيير أو تبديل، وفي حفظها حفظ للقرآن والإسلام[٣٤].

الصرف:

قال الزركشي في تعريفه وبيان أهميته للمفسر: «و هو ما يلحق الكلمة ببنيتها، و ينقسم الى قسمين: (أحدهما) جعل الكلمة على صيغ مختلفة بضروب من المعاني. و ينحصر في التصغير، و التكبير، و المصدر، و اسمي الزمان و المكان، و اسم الفاعل، و اسم المفعول، و المقصور، و الممدود. (و الاخر) تغيير الكلمة لمعنى طارئ عليها. و ينحصر في الزيادة، و الحذف، و الإبدال، و القلب، و النقل، و الإدغام.

و فائدة التصريف: حصول المعاني المختلفة [المتّسعة] المتشعبة عن معنى واحد؛ فالعلم به أهمّ من معرفة النحو في تعرّف اللغة؛ لأن التصريف نظر في ذات الكلمة و النحو نظر في عوارضها و هو من العلوم التي يحتاج إليها المفسّر.

قال ابن فارس: «من فاته علمه فإنه المعظم؛ لأنا نقول «وجد» كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت، فقلنا في المال «وجدا» و في الضالة: «وجدانا» و في الغضب «موجدة» و في الحزن «وجدا» و غير ذلك[٣٥].

وكمثال آخر على خطر عدم الاضطلاع بالصرف فيقول الازهري أن مادة «دكر» ليس لها معنى ولم تستخدم في كلام العرب. فكتب تاج الكندي في جوابه: إن المفردة التي تصورها لا معنى لها، لها معنى وقد أستعملت قال تعالى: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾ او ﴿ فَهَلۡ مِن

مُّدَّكِرٍ ﴾[٣٦]. مع أن الاخير قد أجاب على أشكاله نقضياً لكن لم يرده حلياً وذلك بالرجوع الى علم الصرف حيث أن حرف الدال في الحالتين قد أبدل من الذال حيث أن أصل «ادّكر» هو «أذتكر»، أي الصيغة الاولى من الفعل الماضي في باب «الافتعال» من مادة ذكر وكذلك أصل «مدكر» و «مذتكر» من أشتقاق واحد[٣٧].

البلاغة وعلومها:

عرّفوا البلاغة بأنها: «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته»[٣٨] فإن كلام المدح يختلف شكله عن الذم وإن المستوى العلمي والثقافي للمستمع يجعل الكلام يتغير فاذا كان المستمع ذكيا فالكلام معه يكون موجزا واشارات واذا كان قليل الفهم فالكلام يكون مطنبا وهذا هو مقتضى الحال. وإن القرآن أفصح وأبلغ كلام العرب وإن من إعجازه هو فصاحته وبلاغته وهذه البلاغة سارية في جميع سوره وآياته ولهذا فقد تحدى القرآن أن يؤتى بسورة من مثله؛ لذلك فإن المفسر للقرآن في صدد تفسير كلام هو في قمة الفصاحة والبلاغة ومن الواضح لا يمكن للمفسر أن يفهم الاسرار الاعجازية في البيان القرآني الناشئة من الربط البديع بين الفاظ القرآن مع مراعاة مقتضى الحال، الا من خلال علمه بفن البلاغة، وكل ما كان تسلطه على هذه العلوم أكثر كان مقدار كشفه أكبر. وإن للبلاغة علوماً توابع لها وهن: المعاني والبيان و البديع وقد ذُكر تفصيلهن في الكتب المتخصصة بذلك، لكن ما نبغيه هنا هو اثر هذه العلوم في التفسير ويتضح ذلك من خلال معرفة اثر البلاغة في ايصال المعنى.

وقد أورد الصابوني في كتابه أمثلة على ذلك بعد التأكيد على أهميتها في التفسير فقال: «و أما علوم (المعاني و البيان و البديع) فضرورية لمن أراد تفسير الكتاب العزيز، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، و ذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم، فمثلا قوله تعالى ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي أشربوا حبّ العجل فهو على حذف مضاف. و مثله "وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ" المراد

أهل القرية و قوله تعالى﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ليس على الحقيقة و إنما هو استعارة فكما يستر اللباس العورة، و يزيّن الإنسان و يجمّله، كذلك الرجل و المرأة كل منهما كاللباس لصاحبه يزينه و يكمّله و يجمّله، و هو من روائع النظم، و بدائع الكلام، و إذا حمل الإنسان المعنى على ظاهره، فسد المعنى، كما يذكر أن (الفرنسيين) أرادوا ترجمة القرآن إلى لغتهم، فلما وصلوا إلى هذه الآية الكريمة ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ترجموها بالظاهر و لم يدركوا السّر الدقيق فيها، فكانت الترجمة كالتالي (هنّ بنطلونات لكم، و أنتم بنطلونات لهن) لأن اللباس عندهم يسمى (البنطلون) و هكذا ساء فهمهم و لم يدركوا روعة تعبير القرآن... و في القرآن الكريم أمثلة كثيرة على الاستعارة و الكناية و المجاز، و لا بد في فهمها من معرفة علم البيان و البديع مثل قوله تعالى عن سفينة نوح ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾أي بحفظنا و رعايتنا، و قوله قَدَمَ صِدْقٍ و لِسانَ صِدْقٍ و جَناحَ الذُّلِ كل ذلك و أشباهه يحتاج إلى فهم علوم البلاغة و أسرار البيان»[٣٩].

أذا يدخل ضمن ما يجب في معرفة اللغة للمفسر أنتباهه الى الاستعارات والتشبيهات والحقيقة والمجاز وكلها أمور مهمة قد تلقي بجاهلها الى الهاوية كما هو الحال فيمن فهم التجسيم من بعض آيات القرآن وليس ذلك الا لجهله بهذه الظرائف الكلامية.

اللغة ومعاني المفردات:

ولا يمكن من دونه معرفة مراد القرآن فكيف للمفسر أن يفهم المقصد وهو لا يعلم ما المقصود من لفظة: «هطع» و «قنع» و «طرف» و «هوي» في قوله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾[سورة ابراهيم: ٤٣] وهكذا بقية المفردات القرآنية التي تحتاج الى معرفة باللغة.

و وضع لذلك علم خاص يدعى بعلم المفردات وهو في حال تطور ويعتمد بالدرجة الاولى على كتب اللغة لكن الاستباط منها ليس كالسابق المتعارف من الاستشهاد بأحدهما بل أن هنالك ضوابط ومراحل يتم من خلالها

تعيين المعنى الصحيح من بين عدة كتب لغوية[٤٠].

وذكر السيد عبد الله شبر معرفة المفردات اول شروط المفسر بقوله: وللحاجة اليه (في التفسير) مقامات: في مفردات الفاظه وبيان معناها في العربية»[٤١].

ولضرورة علم اللغة في التفسير ما ورد عن الامام الصادق عليه السلام: لمكان الباء كما في تفسير الامام الصادق عليه السلام للكتاب المكنون فيما يرويه القمي في تفسيره بسنده عن عبد الرحمن القصير، قال: «... فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها، أ و لستم عربا فكيف لا تعرفون معنى الكلام، و أحدكم يقول لصاحبه انسخ ذلك الكتاب أ و ليس إنما ينسخ من كتاب أخذ من الأصل و هو قوله: «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون»[٤٢].

فقد أستعان الامام عليه السلام في بيان معنى (النسخ) في الآية بالمعنى اللغوي للمفردة؛ بل نبه المخاطب الى هذا المعنى بطريقة تشجع على الرجوع إلى اللغة في فهم القرآن الكريم، ما يدل بوضوح على أن ذلك احد طرق تفسير القرآن[٤٣].

قال الصابونى فى بيان العلوم التى يحتاج اليها المفسر: «كيف يمكن فهم الآية بدون معرفة المفردات و التراكيب و هل باستطاعة أحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بدون أن يعرف المعنى اللغوي للإيلاء، و التربص[٤٤]، وثم يستشهد بكلام لمالك ومجاهد حيث يقول مالك: (لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب، يفسّر كتاب اللهّ، إلّا جعلته نكالا). و يقول مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن باللهّ و اليوم الآخر أن يتكلم في كتاب اللهّ، إذا لم يكن عالما بلغات العرب»[٤٥].

الشعر والخطابة والامثال وما شابه:

مع إن الكثير لاسيما المتأخرون لا يرون في ذلك ضرورة للمفسر لكن يبدو أن نقصانه يقلل من تسلط المفسر على معرفة المعاني ويقلص من اتساع ذهنيته التفسيرية فيكون محدود الفهم ومقلدا لما ورثه من فهم الماضين غير مجتهد لنفسه من خلال اطلاعه على اللغة

جميعا ومعرفة معناها كمخاطب بها، وإن في ذلك معرفة المترادفات والمشتركات وأعلا من ذلك معرفة موارد الاستعمال. وإن الشعر لا يمكن الاستغناء عنه لكونه النص العربي الذي وصل الينا منذ نزول القران من دون تلاعب ولذلك كثيرا ما كان المفسرون القدامى يستشهدون بالشعر العربي في الصدر الاول، في التفسير حتى روي عن ابن عباس أنه قال: «الشعر ديوان العرب»[٤٦]. وكان يستشهد بالشعر كثيرا ولكن أختفى الاستشهاد به عند المتأخرين وهذه ظاهرة سلبية إذ إن دواوين العصور الاولى موجودة فبإمكاننا أن نستفيد منها وحتما سنجد التفاتات وشواهد جديدة غابت عن الماضين وذلك لكثرة الاشعار من جهة ولوجود الجوانب البلاغية الخفية فيها من جهة أخرى، فلابد أن لا تتوقف مسيرة الاستعانة بالشعر العربي، في التفسير. وكذلك الخطب فبإمكاننا أن نفهم معنى مفردة قرآنية قد ذكرت بصورة عابرة من خلال مجيئها في خطبة وقد بسطت لنا هناك نفهم من حالها وقرائنها معناها الحقيقي ونكون بذلك كاللغويين الذين عرفوا المعاني من مشافهة العرب فالمقاطع الشعرية والنصوص الخطابية موجود منها الكثير بيننا فبإمكاننا أن نصل الى العربية الام من خلال ذلك.

أهمية الاطلاع على كل اللغة العربية:

اذاً ضروري للمفسر أن يعرف العربية كلها كلغة وذلك من خلال الاطلاع على الشعر والاستفادة منه والاطلاع على مصطلحات عصر النزول وما يستخدم في العربية وما لا يستخدم وإن ذلك يورث قوة الذهن في فهم الكلام من خلال التسلط على العربية كما نراه جليا عند المفسرين الضالعين باللغة ومن ثمار الاطلاع على كل اللغة العربية هي:

١. معرفة المصطلح في زمن النزول:

إن الاطلاع على عربية زمن النزول يشخص لنا المعنى الصحيح للمفردة أو الجملة من بين المعاني المتعددة وكثيرا ما يحصل التعدد في المعاني لكلمة واحدة، كما هو واضح. وإن الاطلاع على العربية

في زمن النزول أو الصدور ينفع حتى في فهم الحديث؛ بل لعله الحاجة هنا اكبر، لعدم وجود تفاسير للحديث كما للقرآن وإن كثيرا من الألفاظ غيرت بمرور الزمن أو ترك استعمالها وكمثال على ذلك فإن قول رسول الله ﷺ يوم غدير خم: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» قالوا إن مولاه هنا هو بمعنى المحبة وأمثالها وليس هو بمعنى أولى بكم كما يدعي الشيعة، وهذا الكلام يردده عامة أهل السنه أذ لو أقروا أن معنى مولاكم يعني أولى بكم لنسف المذهب السني بالكامل، لذلك قالوا لا يمكن أن تكون مولى بمعنى أولى في حين أن في القرآن وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [سورة الحديد: ١٥] قال المفسرون كلهم أن (مولكم) هنا بمعنى أولى بكم ومن هنا يتضح أن كلمة مولى كانت تستخدم في عصر النزول بمعنى أولى وبعد ذلك هجر هذا المعنى وصار المراد الحب وغيره وعليه فلا يصح ادعاء من يقول ان من كنت مولاه لا تعنى اولى بكم.

٢. معرفة اعجاز القران وفرقه مع كلام البشر وعلوه عليه وكيفية اعجازه: فالمسلمون اليوم يعتقدون أن القرآن معجزة في كلامه ولكنهم يعتقدون بذلك تعبداً وليس عن معرفة وهذا بسبب عدم معرفتنا باللغة العربية الفصحى واذا أردنا أن نثبت تعالي القرآن عن بقية الكلام استندنا الى كلام الوليد بن المغيرة وغيره، فلماذا نحن لانفهم بلاغة القرآن وحلاوته وتفوقه على سائر الكلا؟. هل لسبب أيماني و طهارة قلبية؟. كلا، لأن المشركون لم تكن قلوبهم طاهرة ولكنهم خشعوا وآمنوا عندما سمعوا القرآن وذلك لمعرفتهم باللغة العربية فاليوم أذا اردنا أن نصلح المجتمع بالقرآن يجب أن نحيي العربية الفصحى فيه حتى يؤثر فيهم والمفسر لابد أن يدرك عن علم لا عن تقليد تفوق كلام القران على سائر الكلام ولايكون ذلك الا بتضلعه باللغة العربية بكلها.

٣. معرفة المترادفات والمتشابهات للفظ القرآني: وذلك للتمييز الصائب للمفردة عن متشابهاتها وإن الاطلاع على اللغة العربية الفصحى يجعل المفسر دقيق التشخيص في بيان المعنى للقرآن من دون اذا كان غارق في العربية المعاصرة أو مغلق على مفردات القرآن فقط ولا يدري ما يستعمله العرب في كلامهم فلا يعلم المترادفات والمشتركات وإن عدم فهم ذلك يسلبه الدقة في الفهم.

٤. التمييز بين السماعي والقانون الصرفي: إن الذي يقتصر اطلاعه على معرفة القوانين النحوية والصرفية فقط لا يمكن له أن يسلم من الوقوع في الخطأ. كما سمعت أحد الاساتذة الافاضل وكان مفسراً للقرآن يعطي احتمالات لمفردة وردت في رواية تفسيرية وهي لفظة «أعجبته» فقال: واحدة من الاحتمالات لهذه المفردة هو بمعنى تعجب منها. وهذا الاحتمال وإن كان صرفياً صحيح؛ ولكنه غير مستعمل في العربية وفضلا عن العربية الاولى فهو اليوم غير مستعمل ايضا، فلو قصدوا معنى الاستغراب لقالوه متعديا بحرف الجر أي تعجب منها. وهذا الخطأ كما هو واضح ناشئ من عدم معرفة اللسان العربي.

هل تكفي العربية وحدها في التفسير؟.

قولنا لا يستغني المفسر عن العربية لا يعني كفايتها وحدها في الحصول على التفسير المتقن الصحيح. ولقد بالغ ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) حينما أعتبر العرب جميعاً يفهون تركيب القرآن ومعانيه، لأنه نزل بلغتهم؛ فقال: «إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتركيبه»[٤٧].

وقد رد ذلك الدكتور الصغير بقوله: «ومهما أوتي العربي من دقة الفهم، وملكة الاحاطة باللغة، وسعة الثقافة في المفردات، فلن يستطيع سبر أغوار القرآن جميعاً، ولا كشف أبعاده كشفا مميزا بحيث يبلغ بذلك الذروة،

نظراً لرقي الكتاب نظما وتأليفا -كونه كلام الله تعالى -مما يجعل ذلك متعسرا على الكثيرين من القدامى والمحدثين، فكيف تصح الدعوى بفهم العرب جميعا للقرآن»[٤٨].

وقال الصابوني: أضافة الى معرفة قواعد اللغة لابد من معرفة أمور غير العربية من أجل الحصول على التفسير الصحيح للقرآن الكريم: «وإذا لم يفهم الانسان قواعد اللغة، ولا أصول العربية خبط خبط عشواء، وكان عليل الرأي سقيم الفهم، وكذلك من لم يفهم غرض الشرع وقع في الجهالة والضلالة»[٤٩].

وقال الصنعاني: نزل القرآن الكريم بلغة العرب، و على أساليبهم في الكلام، و في ذلك يقول اللهّ تبارك و تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[الآية: ٤] لذلك كان الصحابة الكرام يفهمون القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره و أحكامه، أمّا فهمه تفصيلا، و معرفة دقائقه بحيث لا يغيب عنهم منه شيء فقد تفاوتوا في ذلك، بسبب اختلافهم في العلم بلغتهم، و بمعرفة أسباب النزول، فكانوا يرجعون إلى النبيﷺ فيما لم يفهموه فيفسره لهم لذا فقد أثر عنهﷺ عدد كبير من الأحاديث تتناول تفسير القرآن[٥٠].

ويقول في ذلك الشيخ جوادي آملي: «فجماعة قد أعرضت عن معرفة القرآن وقالت انّ الحجّية مختصّة بالروايات فقط وحسبوا أنّ القرآن أخرس أبكم، وهو ليس سوى ألغاز ورموز غير مفهومة. وجماعة قالت بأنّ لغة القرآن هي محض رموز تشير للمعارف الباطنيّة، ولا يناالها أحد إلاّ الأوحديّ من المرتاضين. وجماعة استخفّوا بالقرآن وأنزلوه الى درجة بحيث قالوا إنّ معرفة اللغة العربيّة وحدها كافية لفهم القرآن، وإنّ عامّة الناس مؤهّلون لفهم معاني القرآن من دون الحاجة إلى علم التفسير. وكلّ هذه الأقوال ماهي إلاّ نسيج من الأوهام وأفكار منسوخة. إنّ كون القرآن مفهوماً لعامّة الناس وكون ادراك معارفه ميسّراً للجميع، لا يعني انّ كلّ فرد يستطيع ذلك، حتّى إذا لم يكن عارفاً الأدب

العربيّ ولم يطّلع على العلوم الأساسيّة الأُخرى الّتي لها دور في فهم القرآن، وانّ له الحقّ في التدبّر في المفاهيم القرآنيّة والاستنباط من القرآن، وبالنتيجة فهو يستطيع ان يعتمد على نتائج استنباطه ويحتجّ بها؛ بل المقصود هو أنّه إذا كان هناك شخص مطّلع وعارف بقواعد الأدب العربيّ ومحيط ببقيّة العلوم الأساسيّة المؤثّرة في فهم القرآن، فإنّ له الحقّ في أن يتدبّر في مفاهيم القرآن وأن يعتمد على ثمرة استنباطه ويحتجّ بها[٥١].

وقد فصّل العلماء كلامهم فيما يجب أن يطلع المفسر عليه من العلوم كعلوم القرآن والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه و اسباب النزول والروايات التفسيرية الصحيحة و... وممن كتب في ذلك الزركشي في البرهان والسيوطي في الاتقان والذهبي ومعرفة وغيرهم الكثير.

يقول محمود رجبي: «لا يمكن للناطقين بالعربية أو المتعاطين مع النصوص العربية، أن يفسروا معاني الالفاظ القرآنية، بالاعتماد على ما تختزنه ذاكرتهم من معلومات، أو على ما يتبادر الى أذهانهم من معان خلال تلاوتهم، أو سماعهم لكلمات القرآن الكريم. ولا يسعهم أن يجعلوا من ذلك منهجا وأساساً لتفسيرهم، وأن يستغنوا به عن مصادر اللغة المعتبرة؛ فقد تكون تلك المعاني الارتكازية، قد ظهرت بعد عصر النزول[٥٢].

النتيجة:

إن العربية هي لغة القرآن ولابد للمفسر النموذجي أن يكون متقناً لها دون الاكتفاء بمعرفة قواعد النحو والصرف والرجوع الى اللغة وكذلك الاستفادة من النصوص العربية الاصيلة كالشعر والخطابة في العصر الاول ومادام القرآن لم يخالف لغة العرب فكل ما وصل الينا وصح نسبته الى ذلك الزمان بإمكانه ان يكون مصدرا للتفسير كشاهد لغوي و طبعاً إن العربية مع أهميتها في فهم النص القرآني لا تكفي وحدها للتفسير فلابد من معرفة علوم أخرى من قبيل أسباب النزول والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والتاريخ وغيرها.

الهوامش:

(١) محمد جواد البلاغي، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ص٣٢.

(٢) هناك مجالات فيما يخص المباحث اللغوية منها ما تطرقه له الباحثان المستشرقان سوسو وايزوتسو وغيرهما وما ابدوا من نظريات في هذا الخصوص ونحن لسنا في صدد هذه النظرة الى اللغة بل نتطرق الى المعنى الظاهري للغة والذي اعتمده جمهور المفسرين.

(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص٢٢،مع الاختصار.

(٤) محمد كبير يونس، اصول التفسير، ص٢٢٢، مع الاختصار.

(٥) محمد خليفة، الأدب والنصوص، ص١٣.

(٦) الصاحبي، فقه اللغة، ص٢٣، مع الاختصار.

(٧) المصدر السابق.

(٨) السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٩٧.

(٩) رجال الكشي، ج١، ص١٨.

(١٠) الشيخ محمد هادي معرفة، شبهات و ردود حول القرآن الكريم، ص٣٧٠.

(١١) محمد مبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ص٢٤٩.

(١٢) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل في التفسير الموضوعي، ص٨٣.

(١٣) محمد فاكر الميبدي، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، ص٦٠.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) محمد بن حسن طوسى، التبيان في تفسير القرآن، ج٦،ص٢٦١. دار إحياء التراث العربي -لبنان -بيروت، چاپ: ١.

(١٦) طبرسى، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥،ص٣١٦ ناصر خسرو- ايران -تهران، چاپ: ٣، ١٣٧٢هـ.ش.

(١٧) محمد علي الاشيقر، لمحات من تاريخ القران،ص٢٨٩

(١٨) عبد الرحمن البدوي- كمال جار الله، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص٦.

(١٩) هاشم العربي، ملحق ترجمة كتاب الاسلام، ص٤١٧.

(٢٠) محمد جواد البلاغي، الرحلة المدرسية، مع التصرف والتلخيص.

(٢١) هاشم العربى، ملحق ترجمة كتاب الاسلام، ص٤٢٦.

(٢٢) الشيخ محمد هادي معرفة، شبهات و ردود حول القران الكريم، ص٣٧٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٣٨٤.

(٢٤) هاشم العربي، ملحق ترجمة كتاب الاسلام، ص٤٦٦، مع التصرف.

(٢٥) شرح بن عقيل، ج١، مباحث الضمائر.

(٢٦) قد سمعت بهذا الرأي سماعا عن بعض طلبة العلم ويظهر أن أصلها فكرة تدور في أذهان البعض وقد أشار الى جزء منها محمود الرجبي في كتابه بحوث في منهج تفسير القرآن، ص٧٣.

(٢٧) المحرر الوجيز، ج١، ص٦٩-٧٠؛ وقد نقل عين هذه العبارة الثعالبي في جواهر الحسان، ج١، ص١٦-١٧.

(٢٨) الجامع لآحكام القرآن، ج١، ص٦٨-٦٩.
(٢٩) نقلا عن ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٥.
(٣٠) الرسالة للشافعي: ص٤١ -٥٠، ف١٣٣-١٧٠، و انظر المستصفى للغزالي: ج١ ص٦٨، و روضة الناظر: ج ١ ص١٨٤.
(٣١) السيد محمد باقر الحكيم، تفسير سورة الحمد، ص٥٨.
(٣٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٢٨٧.
(٣٣) خالد عبد الرحمن العك، اصول التفسير وقواعده، ١٥٦.
(٣٤) خالد عبد الرحمن العك، اصول التفسير وقواعده، ص١٥٩.
(٣٥) الزركشي، البرهان في تفسير القرآن، ج.
(٣٦) لاحظ: إنباه الرواة: محمد ابو الفضل ابراهيم، ج٢، ص١٠.
(٣٧) التفت الى ذلك كامران ايزدي في كتابه شروط وآداب تفسير ومفسر، ص٧٢. وقد أوردناه مع الاختصار.
(٣٨) الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص٢٠.
(٣٩) محمد بن علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، ص١٦١.
(٤٠) وممن كتب في ذلك حديثا هو غلام علي همايي في كتابه باللغة الفارسية درسنامه مفردات قرآن مجيد.
(٤١) السيد عبد الله شبر، تفسير القرآن الكريم، ص٢١.
(٤٢) على بن ابراهيم القمي، تفسير القمي، ج٢،ص٣٨٠.
(٤٣) السيد زيد البطاط ،منهج تفسير القرآن بالقرآن في روايات اهل البيت عليهم السلام، مجلة المصباح العدد الرابع والعشرون. شتاء١٤٣٧ -٢٠١٦
(٤٤) محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، ص١٥٩.
(٤٥) نقلًا عن المصدر السابق.
(٤٦) محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٩، ص١٥٠.
(٤٧) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، ص٣٦٦.
(٤٨) محمد حسين الصغير، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم، ص٨٠.
(٤٩) محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، ج، ص١٧٦.
(٥٠) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تفسير القرآن العزيز المسمى تفسير عبد الرزاق، ج١، ص١١.
(٥١) الشيخ جوادي الآملي، تفسير التسنيم، ج١، ص٦٧.
(٥٢) محمود الرجبي، بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم.

المصـــادر

القران الكريم.

١. الرجبي، محمود، بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم، ترجمة: حسين صافي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

٢. العك، الشيخ خالد عبد الرحمن، اصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ١٤١٤ هـ، ط٣.

٣. بن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة بن خلدون، المطبعة الشرقية، القاهرة، ١٣٢٧ ق.

٤. الصغير، الدكتور محمد حسين، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، دار المؤرخ العربي، بيروت -لبنان، ٢٠٠٠م، ط١.

٥. الصابوني، محمد علي، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد، بيروت، ١٩٧٠م.

٦. صنعانى، عبد الرزاق بن همام، تفسير القرآن العزيز المسمّى تفسير عبد الرزاق، دار المعرفة -لبنان- بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ. ق.

٧. سعيد، عبد الستار فتح الله، المدخل في التفسير الموضوعي، دار التوزيع والنشر الاسلامية، القاهرة، ١٤١١هـ. ق.

٨. العربي، هاشم، ملحق ترجمة كتاب «مقالة في الاسلام لتسدال» مطبعة النيل المسيحية، مصر، ١٩٢٥م.

٩. معرفة، الشيخ محمد هادي، شبهات و ردود حول القرآن الكريم، مؤسسة التمهيد، قم، ٢٠٠٦.

١٠. ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية- منشورات محمد علي بيضون، ١٤١٩ق، ط١.

١١. البلاغي، محمد جواد، الرحلة المدرسية.

١٢. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط١.

١٣. الطبرسي، الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ناصر خسرو، ١٤١٣ق، ط٣.
١٤. فاكر الميبدي، محمد، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، مجمع التقريب بين المذاهب.
١٥. محمد ابو الفضل ابراهيم، إنباه الرواة، ط١.
١٦. ايزدي مباركه، كامران، شروط وآداب تفسير ومفسر، مؤسسة انتشارات امير كبير، طهران، ١٣٧٦ش.
١٧. الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، تلخيص المفتاح، منشورات الرضي والزاهدي، قم، ١٣٦٣ش، ط٢.
١٨. شبر، سيد عبد الله، تفسير القرآن الكريم.
١٩. الرجبي، محمود، بحوث في منهج تفسير القرآن، ت: حسين صافي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٧، ط١.
٢٠. همايي، غلامعلي، درسنامه مفردات قرآن، انتشارات جامعة المصطفى العالمية، قم، ١٣٨٦، ط١.
٢١. البلاغي، محمد جواد، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (بلا تاريخ).
٢٢. الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، (بدون).
٢٣. الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١١، ط١.
٢٤. مبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية.
٢٥. البدوي، عبد الله، جار الله، محمد، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، الدار العالمية للكتب.
٢٦. محمد بن كبير يونس، اصول التفسير، ٢٠٠٢، ط١.
٢٧. رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، دار المعرفة، ١٤١٤، ط١.
٢٨. الحكيم، السيد محمد باقر،

تفسير سورة الحمد، مجمع الفكر الاسلامي، قم، ١٤٢٠ق، ط١.
٢٩. الصاحبي، فقه اللغة.
٣٠. الاشيقر، محمد علي، لمحات من تاريخ القرآن، مؤسسة الاعلمي.
٣١. الآملي، الشيخ عبد الله جوادي، تفسير التسنيم، موسسة علوم وحياني أسراء، القرص الليزري.
٣٢. ضيف، شوقي، العصر الجاهلي.
٣٣. خليفة، محمد، الادب والنصوص.
٣٤. ابن عقيل، شرح بن عقيل على الفية بن مالك، دار أحياء التراث العربي، بيروت.
٣٥. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ١٤٢٢ق، ط١.
٣٦. فتح الله، عبد الستار، المدخل الى التفسير الموضوعي. (بدون).
٣٧. القرطبي، محمد بن احمد، الجامع لأحكام القرآن، ناصر خسرو، طهران، ١٤٠٥، ط١.
٣٨. القمي، علي بن ابراهيم، تفسير القمي.